حركة اليد في القرآن الكريم(ودلالتها البلاغية)

د/ السيد محمد سالم

د/كمال عبد العزيز إبراهيم

جامعة المدينة العالمية(ماليزيا)

ملخّص:

هذا بحث في بلاغة التعبير بحركة اليد في القرآن الكريم يتتبع الآيات التي ورد فيها ذكر اليد سواء أصدرت الحركة عنها منفردة أم مشتركة مع غيرها من أعضاء الجسم، وسواء أكانت اليد فاعلة للحركة أم مفعولا بها، وسواء أكانت على الحقيقة أم على المجاز. إن اليد تقوم مقام اللسان أو تشترك معه في التعبير عن المشاعر الداخلية للإنسان من رضا وسخط أو قبول ورفض أو تعجب واستنكار.

وفي القرآن الكريم كثير من تلك الموقف من مثل: وضع الأصابع في الآذان للدلالة على الخوف من الرعد أو للإعلان عن رفض الاستماع لدعوة الرسل، ومثل عض الأصابع بالأسنان دلالة على الندم، ومثل بسط اليد للتعبير عن الكرم وقبضها للتعبير عن البخل...إلخ.

وتلك طريقة في التعبير بلغة الإشارة Gesture Language قد تكون أحيانا أبلغ من اللغة المنطوقة Spoken Language وقد استفاد الباحث في بيان المغزى البلاغي لتلك الآيات من كتب البلاغة والتفسير ومما توصل إليه علم الحركة الجسمية Kinesics. إن حقل الدراسة البلاغية للحركة في القرآن الكريم ما زال بكرا وآمل أن يتابع هذا البحث بدراسة شاملة للحركة الجسمية في القرآن.

Abstract

This research is about eloquence of expression hand movement in the Qur'an traces the verses which states mentioned hand, whether issued a motion by the individual or shared with other members of the body, and whether the hand of active movement or effect, and whether it is the truth or a metaphor.

The hand serves as the tongue or share with him in expressing their inner feelings for a person of satisfaction and discontent, acceptance and rejection and condemnation or exclamation.

In the Qur'an, many of these position such as: put the fingers in the ears to signify the fear of thunder or to advertise their refusal to listen to the call of the Apostles, and the like biting fingers dental sign of remorse, and, like the extension of the hand to express their generosity and taking possession of the expression of greed ... etc.

That way of expression in sign language Gesture Language can sometimes be louder than spoken language Spoken Language researcher has benefited in a statement rhetorical significance of these verses from the books of rhetoric and interpretation and thus reached aware of physical movement Kinesics. The rhetorical study of the movement in the Koran field is still a virgin and I hope that continues this research a thorough study of the physical movement in the Qur'an.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

تقديم:

مع أن اليد في المعاجم العربية تطلق على الكف والأصابع – ففي لسان العرب: اليد الكف، وقال أبو إسحاق: اليد من أطراف الأصابع إلى الكف، فإن الاستخدام الشفوى الشائع جرى على إطلاقها على الذراع كلها إلى الكتف، وبواسطة هذا الجزء يقوم الإنسان بكل الأعمال الحيوية، ويستخدمه كذلك في الإشارة أو التلويح – بمصاحبة اللفظ أو بدون مصاحبته – للتعبير عن عواطفه وانفعالاته ومكنون نفسه.

وكما تطلق اليد في الحقيقة على تلك الجارحة فإنها تطلق في المجاز على أشياء كثيرة ذكر منها صاحب اللسان ما يلي:

اليد: الغنى والقدرة، تقول: لي عليه يد أي قدرة.

واليد: القوة، واليد: النعمة، والسطان، والملك، والطاعة والجماعة، واليد: الندم. ومنه يقال – سُقِطَ في يده – إذا ندم وأُسْقِطَ أي ندم، وفي التنزيل العزيز (ولما سُقِطَ في أيديهم) أي ندموا – وقال ابن شميل: له عليَّ يدّ، وأنشد:

له عليَّ أيادٍ لستُ أَكْفُرُها * وإنما الكفرُ ألا تُشْكَرَ النِّعَمُ

وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): اليد العليا خير من اليد السفلى[1].

إننا في حياتنا اليومية نستخدم اليدين – وربما بدون وعي أو تفكير مسبق – للتعبير عن أشياء كثيرة، مثل: بسط الذراعين للترحيب بالقادم أو التلويح باليد لتوديع المسافر، أو قبض الكف مع رفع السبابة للتحذير أو التهديد، أو ضرب كف بكف للدلالة على التعجب والدهشة، أو عض الأصابع أو قضم الأظافر للتعبير عن الندم أو الاستغراق في التفكير ويعبر عالم اللغة (فندريس) عن ذلك بقوله: إن اليد تمتد وتنكمش كما لو كانت تغوص في أعماق الضمير لتجلب الفكرة الوليدة تعجنها وتصقلها بإعطائها الشكل المناسب[2].

ويذكر علماء اللغة كثيرا من الإشارات اليدوية التي قد تتجاوز الدلالات المحلية إلى النطاق الإنساني، يذكرون من ذلك إشارات المرور اليدوية الدولية، وبعض الحركات التي تعبر عن مشاعر إنسانية عامة فالذي يستغرق في التفكير يظهر لنا معتمدا على يده، واضعا خده أو جبهته على

---

[1] لسان العرب لابن منظور (يدى) ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[2] انظر: الإشارات الجسمية: دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل. د/كريم زكي حسام الدين ط: 1، ص: 183، وهذا الكتاب يعتبر من الكتب الرائدة (في المكتبة العربية) في هذا المجال.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كفه، كما أن عقد اليدين فوق الصدر دليل على الزهو والافتخار، وهز السبابة يمينا ويسارا يعني الرفض، ووضعها رأسا على الشفتين يعني الأمر بالصمت.

وتتنوع هذه الإشارات الدالة إلى الحد الذي يذهب فيه بعض اللغويين إلى القول بأن اليدين يمكن أن تقوما بتشكيل أكثر من 700 إشارة متميزة . وفي كتاب (قواعد الخطابة) للخطيب الروماني (كنتليان) ما يؤكد أن اليدين تعتبران من أهم أجزاء الجسم مساعده للمتكلم لأن بهما نطلب وننادي ونأمر وننهى ونسأل ونجيب، ويعبر بهما عن الفرح والحزن والشك واليقين[3].

وقد فطن علمائنا وأدباؤنا الأوائل إلى أهمية الدلالة الحركية عموما وإلى حركة اليد على الخصوص، وكيف أنها تكشف عن مخبوء النفس وخواطر القلب فالشاعر يستخدم إشارة الأصبع نيابة عن الألفاظ كرسالة حركية تغني عن الكلام فبقول:

بَنَانُ يَدٍ تشير إلى بنانٍ * تَجَاوَبَتَا وما يتكلمان

جرى الإيماء بينهما رسولا * فأعرب وَحْيَهُ المتناجيان[4]

ويعتبر الجاحظ اليد معاونة للسان في البيان إذ (لابد لبيان اللسان من أمور منها اليد)[5] كما يؤكد على أن العقد وهو (عقد الأصابع للعدد ولكل هيئة معينة) هو أحد خمسة الأصناف للدلالة على المعاني من لفظ وغير لفظ[6] ويؤكد في موضع آخر أن حسن الإشارة باليد والرأس من تمام البيان[7].

---

[3] السابق: 55، 182، 183 بتصرف.

[4] الزهرة: أبو بكر بن محمد بن داود الأصفهاني 153/1، تحقيق د/إبراهيم السامرائي، عمان، الأردن، 1975م.

[5] الحيوان للجاحظ: 41/1، تحقيق فوزي عطوي، ط دار صعب ، بيروت، 1983م.

[6] البيان والتبيين 76/1. تحقيق عبد السلام هارون، ط الخانجي، مصر 1969م، وبقية الأصناف هي (اللفظ والإشارة والخط والحال أو النصبة).

[7] السابق: 88/1، وللدكتورة فاطمة محجوب بحث طريف عن الحركة الجسمية من خلال البيان والتبيين تحاول فيه الربط بين كلام الجاحظ عن كون (حسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان) وعلم الحركة الجسمية أو علم الكينات Kinesics وهو علم يزداد على مر الأيام نموا، وتجرى في مجاله الأبحاث النظرية والمعملية وأصبح يحتل المكانة الجديرة به في علم الاتصال.

فالجاحظ في الفقرة السابقة ينوه بأهمية استعمال الإشارة في فن الخطابة وهذه حقيقة معروفة في علم الحركة الجسمية، وتتناول كتب فن الخطابة أثر الحركة الجسمية المدروسة على حسن البيان والتأثير على الجماهير، دراسات في علم اللغة د/ فاطمة محجوب، ص: 104

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما اصطلحت الجماعة العربية على اعتبار الإشارة باليد دليلا على معان كثيرة كالتعجب والدهشة والإنكار. وتحفل كتب التاريخ بالمواقف الدالة على ذلك. وفي بعض أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما يشير إلى استخدام حركة اليد أو الأصابع للتعبير عن معان تكون الإشارة فيها أبلغ من العبارة، ومن ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم): بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى[8]، وقوله (صلى الله عليه وسلم): "التقوى هاهنا وأشار إلى صدره الشريف ثلاث مرات"[9]، وقوله (صلى الله عليه وسلم)"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا – وشبك بين أصابعه"[10]، ومن تلك الإشارات أيضا ما يقصد به البيان والتثقيف كقوله (صلى الله عليه وسلم) لعبد الله بن عمرو بن العاص: "وكيف بك إذا أبقيت في ضالة من الناس قد مَرِجَتْ (فسدت) عهودهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا وشبك بين أصابع يديه"[11].

وفي حادثة الإسراء يروى أن أبا جهل صاح قائلا: (يا معشر بني كعب بن لؤي هلم. فحدثهم..فمن بين مصفق ورافع يده على رأسه تعجبا وإنكارا)[12].

حفل القرآن الكريم بالصور الحركية لليد، وكل حركة لها دلالتها البلاغية التي قصد القرآن إليها قصدا للتأثير في النفوس حتى تستجيب لدعوة الحق فإن البلاغة القرآنية مرتبطة أشد الارتباط بالأغراض الدينية لأن القرآن كتاب دعوة وتشريع، والوسائل البلاغية طريق إلى أداء الحقائق الدينية على نحو مقنع مؤثر يفتح الأبواب الموصدة ويقتحم القلوب المغلقة، والانتفاع بالقرآن الكريم لا يتم بالوقوف عند مجرد بلاغة التعبير (لأن أداة تلقى القرآن هي القلوب وليست مجرد الآذان – قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾[13].

---

[8] صحيح مسلم: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري 592/2 تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي المكتبة الإسلامية / استنابول.

[9] السابق: 1986/4

[10] مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي هامش على: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للملا على القاري ص: 8، حديث رقم 4955، ط المكتبة التجارية، مكة المكرمة 1992م.

[11] السابق، ص: 9، حديث رقم 5698

[12] البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلس، 6/6، ط 2، دار الفكر- بيروت.

[13] دور البلاغة في تأدية الأغراض الدينية، د/ محمد إبراهيم شادي، ص: 4، ط، دار السعادة مصر 1991م. والآيات من سورة الشعراء: 192-194

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحركة اليد أو اليدين في القرآن الكريم قد تأتي منفردة مثل قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾[14]. وقد تشترك اليد مع عضو آخر من الجسم مثل قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ.. ﴾[15].

وقد تلتقي اليد مع شيء أو أشياء خارجة عن الجسم مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾[16]، وقوله سبحانه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ﴾[17]. وفي هذا البحث سوف أقف أمام العديد من الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر اليد، سواء أصدرت الحركة عنها منفردة أو مشتركة مع غيرها من أعضاء الجسم، وسواء أكانت اليد فاعلة للحركة أو مفعولا بها وسواء أكانت على الحقيقة أو على سبيل المجاز.

وذلك كي نتبين بلاغة التصوير القرآني في هذا المجال، ولنتعرف على الظلال والإيحاءات التي يهدف التعبير إلى إظهارها كي تؤثر في وجدان السامعين – وسيكون السياق والنظم هما الأساس في بيان المغزى البلاغي مستعينا كذلك بآراء المفسرين وعلماء البلاغة، مستفيدا – ما أمكن – بما توصل إليه علماء السلوك الإشاري – وأود أن أنبه هنا إلى أن علم الحركة الجسمية Kinesics لن يكون بالضرورة إطارا لهذا البحث فهو بحث في البلاغة بالدرجة الأولى وليس بحثا في علم اللغة غير أنه لا مانع من الاستفادة بما يتفق منه مع البلاغة القرآنية – كما أود الإشارة أيضا إلى أن حقل البحث البلاغي في هذا المجال ما زال بكرا، وأمل أن يحفزني هذا لدراسة بلاغة الحركة الجسمية في القرآن الكريم دراسة مستفيضة تتناول أعضاء الجسم كلها، وعلى الله قصد السبيل.

1– وضع الأصابع في الآذان: ورد ذلك في القرآن الكريم في موضعين مختلفي الدلالة، الأول في سورة البقرة وهو قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[18].

الثاني: في سورة نوح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾[19].

---

[14] مريم: 29

[15] البقرة: 19

[16] الأنعام: 7

[17] سورة ص: 44

[18] البقرة: 19

[19] نوح: 7

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أ- تأتي الآية الأولى في سياق الحديث عن المنافقين فتصور حالهم بحال من أظلمت عليهم السماء وانهمر منها المطر المصحوب بالرعد والبرق والصواعق، فوقعوا في الحيرة والاضطراب والخوف، ولشدة الصواعق وطرقات الرعد تراهم قد وضعوا أصابعهم في آذانهم خوفا وهلعا – وهي صورة حافلة بالسخرية من هؤلاء الذين يظنون أنهم بذكائهم يخدعون المؤمنين فإذا هم كالأطفال الخائفين المذعورين من ظاهرة طبيعية هي ظاهرة البرق والرعد، وهم لسذاجتهم يعتقدون أنهم أصبحوا في مأمن حين وضعوا أصابعهم في آذانهم.

إن الإنسان في الأوقات العصيبة والكوارث العاتية والدواهي العظيمة ينعقد لسانه من هول المفاجأة ويجف ريقه من الخوف ولا يكاد يقدر على الكلام عندئذ تكون الحركة الجسدية هي الملجأ للتعبير عن حالة الهلع والخوف التي اجتاحته.

إن التعبير هنا بالجمع (الأصابع) – مع أن الذي يدخل في الأذن هو الأنامل – بل أنملة السبابة – يوحي بمدى الرعب والخوف الذي أصابهم، فهم يحاولون إدخال الأصابع جميعها. وقد عبر الزمخشري عن تلك المبالغة بقوله: (فإن قلت: رأس الإصبع هو الذي يجعل في الأذن، فهلا قيل أناملهم؟ قلت: هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها (مجاز مرسل يفيد المبالغة بذكر الكل وإرادة الجزء).

وجاء التعبير ب(يجعلون أصابعهم) بالمضارع للتجدد والاستمرار لمناسبة (كلما أضاء لهم) وجاءت ألفاظ (صيب، ظلمات، رعد، برق) بالتنكير لتشيع في النفوس جوا من الرهبة والخوف يتناسب مع وضع الأصابع في الآذان حذر الموت.

كما فصلت جملة (يجعلون أصابعهم..) عما قبلها: لشبه كمال الاتصال وهو أن تكون الجملة الثانية قوية الارتباط بالأولى لوقوعها جوابا لسؤال يفهم من الأولى فتفصل بينهما كما يفصل الجواب عن السؤال، فكأن قائلا قال (فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل: يجعلون أصابعهم في آذانهم).[20]

وتلتئم حركة الأصابع هنا مع الحركة التي تغمر المشهد كله من الصيب الهاطل...إلى الظلمات والرعد والبرق...إلى الحائرين المفزعين...إلى الخطوات الوجلة التي تتحرك ببطء إذا أبرقت وتقف إذا أظلمت [كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا] وذلك المشهد الحركي الحسي يرمز

[20] مفاتيح الغيب للإمام محمد بن عمر الحسن الرازي 462/1، دار الغد العربي القاهرة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لحالة نفسية ويجسم صورة شعورية تعكس حالة الاضطراب والتردد بين الإيمان والكفر في نفوس المنافقين، وهي طريقة من طرق القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس.[21]

ب- أما الآية الثانية [وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم...] فإن حركة وضع الأصابع في الآذان –كي لا يستمعوا إلى دعوة الحق تساعد في رسم صورة بليغة لشدة الإعراض، فمحاولة إدخال الأصابع كلها (مجاز مرسل علاقته الكلية وقرينته الاستحالة) أبلغ دليل على شدة كراهيتهم لتلك الدعوة –كما تعكس صورة مزرية ومثيرة للضحك لهؤلاء الحمقى المعاندين الذين يصدون أنفسهم عما ينفعهم رغم وضوح الحق – ويساعد التعليل في (لتغفر لهم) على قبح صنيعهم إذ رأوا المغفرة ماثلة أمامهم ومع ذلك أعرضوا هذا الإعراض العنيف.

وتكتمل صورة هذا النفور بحركة أخرى مصاحبة لوضع الأصابع في الآذان وهي استغشاء الثياب يغطون بها رءوسهم ووجوههم كراهة النظر إلى نوح عليه السلام.[22]

وإن ما قام به قوم نوح عليه السلام من وضع أصابعهم في آذانهم لهو أبلغ من أي كلام يمكن أن يقولوه في هذا المجال للتعبير عن صدودهم ونفورهم.

ولا شك في أن إشارتهم تلك لابد أن تكون مفهومة الدلالة في مجتمعهم وزمانهم – لأن الإشارة الجسمية حركة تتواضع عليها الجماعة اللغوية ترتبط بعواطف الإنسان ومشاعره وانفعالاته الإرادية أو اللاإرادية، ولذلك فإن علماء السلوك الإشاري يؤكدون على أن (الخلفية الثقافية للشخص يجب أن تؤخذ دائما في الاعتبار قبل القفز إلى الاستنتاجات حول ما يعنيه المرء بلغة الجسد.[23]

2- عض الأصابع والأيدي ورد الأيدي إلى الأفواه: اشتركت الأنامل والأيدي مع الفم والأسنان في القرآن الكريم في مواضع ثلاثة، اثنين منها في موقف الحسرة والغيظ والندم والثالث في موقف الإعراض والصدود والاستهزاء بالرسل.

---

[21] انظر في ظلال القرآن. سيد قطب 46/1، ط 11، دار الشروق، مصر 1985م.

[22] يفسر علماء السلوك الإشاري وضع الأصابع في الآذان بأنه محاولة من المستمع لعدم سماع أي شيء، ولذلك فإنه يصد الكلمات بوضع اليد حول الأذن أو فوقها أو داخلها، وهذه الحركة نسخة راشدية مصقولة من إماءة اليدين فوق الأذنين التي يستخدمها الأولاد الذين يرغبون في صد توبيخات والديهم، انظر: لغة الجسد آلن بيز، ص: 57، تعريب: سمير شيخاني، ط 2، دار الآفاق، بيروت، 1997م.

[23] السابق: 13

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أ- في قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.[24]

نزلت هذه الآية وما قبلها في قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين ويواصلون رجالا من اليهود، لما كان بينهم من المصاهرة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، والآيتان تنهيان عن مباطنتهم، خوف الفتنة، وتكشف للمسلمين نواياهم وحقدهم.[25]

والناظر في سياق الآيات يجد النهي صريحا عن مباطنة المنافقين واليهود وموالاتهم لما جبلوا عليه من إضمار الحقد والبغضاء في صدورهم مهما قدم المؤمنون لهم من الحب والمودة.

وتصور الآية التي معنا هنا مقدار ما يحملونه من غيظ وغضب وكراهية للمسلمين – فهم بعد إظهار المودة المزيفة للمؤمنين وحين يخلون لأنفسهم تراهم يعضون أناملهم من شدة الغيظ.

والعض بالأسنان كما يقول أبو حيان (هيئة في بدن الإنسان تتبع هيئة النفس الغاضبة – كما أن ضرب اليد على اليد يتبع هيئة النفس المتلهفة على فائت قريب الفوت، وكما أن قرع السن هيئة تتبع هيئة النفس النادمة إلى غير ذلك – يقول الشاعر:

إذا رأوني أطال الله غيظهم * عضوا من الغيظ أطراف الأباهيم[26]

ويوصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل والبنان والإبهام، قال الحرث بن ظالم المري:

فأقتل أقواما لئاما أذلة * يعضون من غيظ رءوس الأباهم[27]

ومن ثم كان توبيخ القرآن للمؤمنين شديدا: إذ لا يليق بنا أن نجاملهم وقد علمنا أنهم يودون لنا العنت والمشقة، يظهر لنا ذلك أحيانا في تعاملهم وما تخفي صدورهم أكبر. ومن ثم يأمرنا الله بالدعاء عليهم بالموت غيظا وكمدا ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾.[28]

---

[24] آل عمران: 119

[25] انظر: أسباب نزول القرآن للإمام أبي الحسن على بن أحمد الواحدي: 123، تحقيق ودراسة: كمال بسيوني زغلول، ط دار الكتب العلمية بيروت. وانظر كذلك أسباب النزول للسيوطي. هامش على تفسير وبيان القرآن الكريم. إعداد: محمد حسن الحمصي، ط، دار الرشيد – بيروت.

[26] البحر المحيط: 41/3

[27] الكشاف: 407/1

[28] آل عمران: 119

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإن الصورة الحركية التي رسمها القرآن الكريم لهؤلاء القوم وهم يعضون أصابعهم من الغيظ لتعكس حالة الندم الشديد الذي أصابهم لعدم قدرتهم على إيذاء المؤمنين فليموتوا غيظا.

ب- وصورة أخرى للندم نجدها في موقف آخر يصوره قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً﴾.[29]

إن هذا الظالم لنفسه ولغيره، المتجاوز حدود العدل والإنصاف المتبع لقرين السوء في حياته، يجد نفسه يوم القيامة وجها لوجه مع جزائه المنتظر من العذاب وقد كان في الدنيا له منكرا، ولطريق الحق والصواب مجانبا، وعند ذلك يندم على ما فرط ولات ساعة مندم، إنه لذلك يعض كلتا يديه لا يدا واحدة أو بعضهما بالتناوب كناية عن شدة ما تعانيه نفسه المكروبة المتفجعة من الألم والندم على ما فاته وقد كان بين يديه.

والعبرة هنا بعموم لفظ (الظالم) لا بخصوص السبب، فأيا ما كان سبب النزول[30] فإن عض اليد أو اليدين للتعبير عن الندم والغيظ والحيرة هو سلوك حركي بشرى يأتي بطريقة عفوية تلقائية وقت اشتداد الندم والوقوع في الحيرة والاضطراب، أو وقت الغيظ الناتج من الرغبة في الانتقام مع القصور أو العجز عن ذلك.

ويؤيد هذا أن الشاعر العربي قد عبر عن ذلك فهذا تميم بن المعز لدين الله يقول:

وكم أعض البنان من غضب * كأن بين أضلعي شعلا[31]

وعمر بن أبي ربيعة يستخدم تلك الحركة في شعره قائلا:

فَحَيَّيْتُ إذْ فاجأْتها فَتَوَلَّهَتْ * وكادت بِمخْفوض التحية تجهرُ

وقالت وعضَّتْ بالبنان فَضَحْتَنِي * وأنت امرؤ مَيْسُوْرُ أمرِك أَعْسَرُ[32]

وتتوارد دلالات تلك الحركة في كتب المفسرين، فهذا البيضاوي يقول (وعض اليدين وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة: لأنها من روادفها.[33]

---

[29] الفرقان: 27-29

[30] ورد في أسباب النزول أن (الظالم): هو عقبة بن أبي معيط وأن (الخليل): هو أُبَيّ بن خلف وأن (عقبة) كان قد مال إلى الإسلام فنهاه عنه (أُبَيّ). انظر: الصحيح المسند من أسباب النزول. مقبل بن هادي الوادعي ص: 109، ط: 2، دار الأرقم، الكويت.

[31] الديوان: 320، وانظر كذلك: الإشارات الجسمية: 207

[32] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة: محمد محي الدين عبد الحميد: 88، ط: 1، مطبعة السعادة، مصر، 1952م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويؤكد أبو حيان أن عضَّ البنان بسببٍ أمرٌ مشهورٌ بين البشر ويستشهد على ذلك بقول الشاعر:

لو أن سلمى أبصرتْ تَخَدُّدِي * ودِقَّةً في عظمِ ساقي ويدي

وبُعْدَ أهلي وجَفَاءَ عُوَّدي * عضتْ من الوَجْد بأطراف اليد[34]

وميزة السلوك الحركي في القرآن الكريم أن دلالته يمكن أن تفهم من جميع البشر، فهو من النوع الفطري الذي يشترك فيه الجميع ولا تكتمل صورة هذا الندم المعبر عنه حركيا بعض الظالم على يديه إلا مع ما يصاحبها من حديث النفس النادمة، وهو حديث يقطر حسرة ومرارة حين يتمنى الظالم نادما لو كان قد سار على درب الهداية مع الرسول ولم يتخذ قرين السوء صاحبا يضله عن الهداية ثم يخذله في النهاية، وقد ساعدت اللغة المصاحبة للحركة – إلى جانب اللمحات البلاغية الأخرى – في إبراز التحير والغم والندم والتفجع عن طريق أسلوب التمني مع النداء المتحسر. فالنداء هنا لطلب المستحيل ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ ثم نداء الويل والهلاك واستعجاله حتى لا يطول عذابه ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾ وتنكير (سبيلا) للتعظيم، أي سبيل الحق والنجاة والتعبير ب(فلانا) كناية عن العَلَمِ سواء أكان (أُبَيّ بن خلف) أم أي فلان أخر يضل خليله.

ثم إن التعريف في (الرسول) للعهد الذهني وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) وفي (الذكر) كذلك أي: الذكر المعهود وهو القرآن أو الإسلام.

والتعريف في (الشيطان) للإشارة إلى خليله سماه شيطانا لأنه أضله كما يضل الشيطان، ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة أو أراد إبليس أو أن (أل) للجنس وإلى كل من تشيطن من الجن والإنس.[35]

---

[33] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي، هامش على حاشية محي الدين شيخ زاده: 451/3، المكتبة الإسلامية، – ديار بكر– تركيا ويفسر الزمخشري (الروادف) بقوله: تذكر الرادفة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان مالا يجد عند لفظ المكني عنه...انظر الكشاف: 276/3

[34] البحر المحيط: 408/5

[35] الكشاف: 227/3

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ج- أما الآية الثالثة ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.[36]

فقد وردت في سياق الخطاب من موسى عليه السلام إلى قومه (في رأي)، وفي (رأي أخر): أنها خطاب من الله لهذه الأمة وخبر قوم نوح وعاد وثمود قصه الله في كتابه.[37]

وعلى كلا الرأيين فإن الآية تعرض لصورة من صور التكذيب قوبل بها الأنبياء السابقون: نوح وعاد وصالح وكثيرون غيرهم لا يعلمهم إلا الله.

فرغم وضوح الآيات البينات التي جاء بها الرسل فإنهم أنكروا وكذبوا وشكوا وضللوا، ثم تأتي الحركة الجسمية تشترك فيها اليد والفم ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ وتصاحبها عبارات ﴿كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ لتصور الحنق والغيظ، وليس الندم كما سبق في الآيتين الأوليين.

ومن يراجع أقوال المفسرين في دلالة رد الأيدي إلى الأفواه يجد أن القرآن العظيم بهذا التصوير الحركي يفتح الباب أمام تأويل هذا السلوك الإشاري بما يتفق مع غرائز البشر وطبائعهم، وكلها تأويلات واقعية تشهد عليها وقائع الحياة وصراعها، فإن أصدق الإشارات الجسمية ما صدر بطريقة طبيعية كما يقول العالم الألماني (أيبل- أيبز فلت) حيث أثبت أن تعبيرات الابتسام لدي الأولاد المولودين صما ومكفوفين تحدث مستقلة عن التعليم أو المحاكاة الأمر الذي يعني أن تكون إيماءات طبيعية.[38]

وبمراجعة الكشاف والبحر المحيط وزاد المسير وفي ظلال القرآن[39] كنماذج من التفاسير نجد أصحابها يفسرون تلك الحركة تفسيرات تدور حول الدوافع النفسية الكامنة وراها من قبل هؤلاء المكذبين وإن أبلغ الكلام لا يغني في تصوير تلك الدوافع غناء حركة (رد الأيدي إلى الأفواه).

---

[36] إبراهيم: 9

[37] تفسير النهر الماء من البحر لأبي حيان الأندلسي 407/5، ط، دار الفكر، بيروت.

[38] لغة الجسد: 9

[39] ارجع في ذلك إلى الكشاف: 542/2، والبحر المحيط: 408/5، وزاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزي: 266/4، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، وفي ظلال القرآن: 2090/4 وتلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي: 127

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبعض هذه التفسيرات يتفق مع ما أشار إليه علماء السلوك الإشاري وهم يصنفون لغة اليد التي تقوم في النظام الإشاري مقام اللسان في النظام اللغوي الصوتي، وقد عدوا من ذلك: رفع السبابة ووضعها رأسيا على الشفتين أمرا بالصمت.[40]

وهذا ينطبق على ما أورده أبو حيان في رواية أبي صالح: لما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم أن اسكت: تكذيبا له وردا لقوله واستبشاعا لما جاء به أما التفاسير الأخرى فمنها:

– عضوها غيظا وضجرا.

– ضحكا واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه.

– أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: [إنا كفرنا بما أرسلتم] أي هذا جواب لكم ليس عندنا غيره: إقناطا لهم من التصديق.

– جعلوها في أفواه الرسل يشيرون لهم إلى السكوت، وهذا أشنع في الرد وأذهب في الاستطالة على الرسل والنيل منهم.

– على سبيل المجاز التمثيلي – مثل من لم يستجب للدعوة الساكت عن جواب الرسول كمن وضع الأصابع فيه.

– أمسكوا أفواههم بأكفهم إظهارا للامتناع عن الكلام كما فعل قوم نوح حين امتنعوا عن السماع بوضع الأصابع في الآذان.

– ينفرد سيد قطب بتصوير تلك الحركة بصورة من يريد تمويج الصوت ليُسْمَعَ عن بُعْدٍ فيحرك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهابا وإيابا فيتموج الصوت ويُسْمَعَ – فيرسم السياق هذه الحركة التي تدل على جهرهم بالتكذيب والشك وإفحاشهم في هذا الجهر وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق إمعانا منهم في الجهر بالكفر.

ولا ينتهي السياق إلا بإيراد مصير هؤلاء المكذبين المستهزئين، ففي الآيات التالية لتلك الآية نجد تعبيرات من مثل:

– [لنهلكن الظالمين] بتوكيد الفعل باللام والنون المشددة للدلالة على جدية هذا الهلاك وقوته.

---

[40] الإشارات الجسمية: 182

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– [وخاب كل جبار عنيد] التعبير بالفعل الماضي (خاب) لإفادة التحقق والثبوت و(كل جبار) توحي بعدم إفلات أي مجرم، ووصفه ب(عنيد) للسخرية من هذا العنيد المعاند الذي خاب سعيه وظلمه.

– [من ورائه جهنم] وتوحي بالمطاردة والتعقب.

– [ويسقى من ماء صديد] ببناء (يسقى) للمجهول للدلالة على أن هذا السقي رغما عنه لا بإرادته، وتنكير (ماء) ليذهب فيه الظن كل مذهب ووصفه ب(صديد) للترهيب والتهويل وزيادة النفور من هذا المصير.

– [يتجرعه ولا يكاد يسيغه] بصيغة التفعل التي توحي بالصعوبة والمعاناة والاستمرار – مع أنه (لا يكاد يسيغه) وهذا للنكاية به...

– [ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ..] نهاية مفجعة للظالم يحيط به الموت من كل مكان وهو يتمنى هذا الموت كي يريحه من الخيبة والماء الصديد والعذاب – ولكن الموت يتأبى عليه ويطارده بعد ذلك عذاب غليظ.

3– تقليب الكفين: تقليب الكفين أو ضرب اليد على اليد هو كما يقول أبو حيان – هيئة النفس المتلهفة على فائت قريب[41] وتؤدي تلك الإشارة من معاني الندم والحسرة ما لا تؤديه الألفاظ فمبلغ الإشارة –كما يقول الجاحظ– أبلغ من الصوت.[42]

وقد استخدم الشعر العربي هذه الصورة للتعبير عن التفجع والحزن عندما يموت عزيز لدينا، يقول الوأواء الدمشقي:

استرجَعَتْ سألتْ عني فقيل لها * ما فيه مِنْ رَمَقٍ دَقَّتْ يدًا بيدِ[43]

وتقليب الكفين للدلالة على هذه النفس النادمة المتحسرة واضح في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾.[44]

---

[41] البحر المحيط: 41/3

[42] العمدة: ابن رشيق القيرواني: 309/1، ت محي الدين، ط: 3، المكتبة النجارية، 1963م.

[43] ديوان الوأواء الدمشقي (أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني: 267، تحقيق سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي الدمشقي 1950م.

[44] الكهف: 42

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فصاحب الجنتين وأحد الرجلين اللذين يضرب الله بهما المثل في سورة الكهف قد اغتر بماله وتكبر على صاحبه وظن أن جنتيه بما حوتا من نخيل وزروع وثمار إنما هو من مهارته وصنع يديه فإذا به يفاجأ بأن الجنة وما فيها محاطة بالهلاك والبوار من كل جانب [خاوية على عروشها] وهو الذي كان منذ قليل يردد [ما أظن أن تبيد هذه أبدا] هنا يسقط في يديه ويتألم ويتحسر ويندم ويأتي تقليب الكفين مصحوبا بعبارات الندم [يا ليتني لم أشرك بربي أحدا].

وتساعد لغة القرآن المحملة بدلالات الموقف لتؤدي دورها في تجسيم الصورة المزريه والنهاية الأليمة لهذا لظالم لنفسه فالفعل المضارع المضعف (يقلِّب) يفيد الاستمرار مع الشدة، وتعدية هذا الفعل ب(على) (على ما أنفق فيها). لتضمنه معنى (يندم)، والفعل (أصبح) يوحي بأن الهلاك حدث ليلا ولكن صاحب الجنتين فوجئ به صباحا، كما أن دلالة (وأحيط) على الشمول من كل جانب تجعل الندم مضاعفا والألم عظيما.

4- (المكاء والتصدية) أو الصفير والتصفيق: يعرض القرآن الكريم صورة حركية أخرى للأكف يضرب بعضها بعضا لا في معرض الحسرة والندم كالآية السابقة. وإنما في معرض السخرية والاستهزاء بمشركي مكة وقت ما يسمونه صلاة، فبينما يدعى هؤلاء أنهم سدنة البيت الحرام وخدامه وأولياؤه فإن فعلهم القبيح صد عن المسجد الحرام وإيذاء لرواده المتطهرين.

والآية التي نحن بصددها هي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.[45]

فقد كانوا – كما يقول أبو حيان (يطوفون عراة رجالهم ونساؤهم مشبكين بين أصابعهم يصفرون ويصفقون، يفعلون ذلك إذا قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم يخلطون عليه صلاته، فأقاموا مقام الصلاة المكاء والتصدية).[46]

هدفهم إذن ليس العبادة وإنما هي طقوس للغط والصخب (والتهويش)[47] على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى دعوته – يؤيد ذلك قوله تعالى في آية أخرى تصف أفعال المشركين وأقوالهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.[48]

---

[45] الأنفال: 35، والمكاء: مصدر مكا – يمكو– وهو الثغاء والرغاء والصفير، وأما التصدية فهي: التصفيق.

[46] البحر المحيط: 491/4

[47] التهويش: الافساد – يقال هوَّش بين القوم أفسد – انظر: المعجم الوسيط مادة (هوش)، ط: 2، مجمع اللغة القاهرة، 1972م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإذا نحن تركنا تلك الصورة قليلا وذهبنا إلى علم الإشارات الجسمية (الكينات Kinesics) نعرض عليه صلاة المشركين بهذه الطريقة وهل لذلك دلالة معينة – فإننا نجده يشير إلى قدم الاهتمام بالتعبير الجسمي حيث بدأ لدى اليونان والرومان بظهور فن التمثيل الصامت Pantomime ومسرحياته التي لقيت رواجا شعبيا عندهم – وفيها يستخدم الممثلون ملامح وجوههم وأيديهم وأصابعهم للتعبير عن معان مفهومه ومألوفة بواسطة إشارات عرفية، واعتبر الرقص الهندي ممثلا لهذا التعبير بالإشارات الجسمية.[49]

غير أن صورة التمثيل الصامت لا تنطبق في بعض جوانبها على المكاء والتصدية وإن انطبقت على تلك الحركات الجسمية اللافتة للنظر، ولكي نفهم دلالة هذه الحركات فهما حقيقيا فلابد لنا من دراسة الخلقية الثقافية والاجتماعية والدينية لهذا المجتمع قبل القفز إلى الاستنتاجات حول ما يعينه المرء بلغة الجسد.[50]

والقرآن الكريم هو المصدر المعين لنا على فهم تلك الخلفية وعلى السبب في تلك الحركات وقد بين القرآن لنا أنهم يفعلون ذلك بقصد الصد عن المسجد الحرام وبقصد العبث والإفساد والترويح عن أنفسهم بهذه الصورة المزرية المثيرة للسخرية من هؤلاء الذين يدعون الولاية على المسجد الحرام ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.[51]

ولا شك في أن المجتمعات البدائية في أفريقيا – وقد شاهدت بعضها بنفسي – تؤدي مثل تلك الحركات في حفلاتها الوثنية، ولا يستطيع فك تلك الرموز الجسدية إلا واحد منهم..لكني أستطيع القول إن تلك الحركات مناسبة لمستوى تفكيرهم الوثني؛ إذ يعتقدون أنهم بذلك يتقربون لما يعتقدونه آلهة لهم...

وقد ربط سيد قطب بين تلك الصورة القديمة وصورة أخرى حديثة هي صورة العازفين الصاخبين المصفقين والممرغين خدودهم على الأعتاب والمقامات اليوم في كثير من البلاد الإسلامية.[52]

---

[48] فصلت: 26

[49] الإشارات الجسمية، ص: 53

[50] لغة الجسد: ص13

[51] الأنفال: رقم:34

[52] في ظلال القرآن: 1506/3

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد اقتضت طبيعة البحث الوقوف على هذه الحركات دون غيرها للالتزام بمنهج وقواعد وشروط الملجة الكريمة، على أن نواصل بقية الحركات في بحوث قابلة بإذن الله تعالى.

خاتمة :

وهكذا رأينا – من خلال هذا البحث – أن حركة اليد وهيئاتها المختلفة قد أدت من المعانى وأظهرت من الدلالات أكثر مما تؤدية اللغة المنطوقة وأن تصوير الحركة أبلغ أثرا وأبعد مدى من تعبير اللسان.

لقد تتبع البحث كل حركات اليد وهيئاتها في القرآن الكريم بالشرح والتحليل والتعليل مستهديا بروح النظم وببلاغة السياق.

تتبع وضع الأصابع في الآذان والعض على الأنامل والأيدى وتقليب الكفين والتصفيق بهما. ووضح ما تقوم به اليد وما توصف به من لمس وكتابة وأخذ وإشارة وبسط وقبض وغل وكف، كما وصف البحث قطع اليد وتبها والضرب عليها والسقوط فيها، وفي كل تلك المواقف كانت بلاغة التصوير الحركي كاشفة عن مستور النوايا. ومخبوء الضمائر بهدف التأثير في نفوس المتلقين والأخذ بأيديهم إلى طريق الصواب.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com